وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة الأولى

المادة تأريخ الأدب العربي قبل الإسلام

عنوان المحاضرة/ أولية الشعر العربي

م. د. خلود يوسف عبود

أولية الشعر العربي ونشأته

الشعر الجاهلي قديم موغل في القِدَمِ ، مرّ بأطوار وأزمان طويلة، كان في عهد بداية وطفولة، ثم نما وترعرع حتى استوى قصيداً متيناً على يد امرئ القيس واضرابه من فحول الجاهلية، ولا بد أن يكون للشعر تاريخ طويل قطع فيه أشواطاً من الصناعة والدربة حتى استقام واكتمل على هذا الشكل الموزون المقفى ذي الأسلوب الموجز الجميل، والخيال الخصب، والتعبير الدقيق الذي لا لغو فيه ولا تطويل .

وإن المعلقات التي بلغت مرتبة كبيرة من النضج الفني، ونالت إعجاب القدامى والمحدثين كانت نتيجة دربة ومران طويل في صناعة الشعر.

وليس من المستطاع تحديد مدة معينة لبدء تلك المحاولات الأولى لصناعة الشعر ونظمه عند العرب وليس من السهل على الباحث أن يهتدي إلى تاريخ صحيح لمولد هذا الفن القولي الجميل ولكن ما بأيدي الرواة من الشعر الجاهلي يرقى عهده إلى مائة وخمسين سنة او إلى مائتي سنة على الأكثر وهذا هو التحديد الذي قرره الجاحظ حين قال: ((وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، وأول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر، ومهلهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام)) .

فالجاحظ هنا يعين عمراً للشعر الذي عرف وهو ناضج مكتمل، إذ لا يمكن لباحث أن يطمئن إلى أن هذا التراث الحافل، وذلك الشعر الخالد يرجع إلى قرن ونصف قبل البعثة النبوية الشريفة، أما ما قيل قبل ذلك فلا يمكن أن يُحدّ بمدة قليلة كهذه ، فهناك مئات من السنين مرّ بها الشعر حتى وصل مكتملاً إلى المهلهل وامرئ القيس وعنترة وغيرهم .

وفي الشعر نفسه من الدلائل الواضحة على أنه مسبوق بكلام كثير ومحاولات عهدها طويل فامرؤ القيس يحاكي من قبله في الوقوف على الديار والبكاء عليها إذ يقول :

عُوجا على الطلل المحيلِ لأننا نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خذامِ

فهذا الشعر الذي عرفه العرب عند الشعراء الجاهليين، وجد قريباً من الكمال ، حائزاً على أسباب الجمال والاتقان ، لفظاً ومعنى وعروضاً، حتى إن الشعراء المولدين لم يستطيعوا أن يضيفوا إليه جديداً بارعاً فلم يزيدوا على البحور الجاهلية شيئاً، ولم يتمكنوا من تغيير نهج القصيدة .

فمن أراد من الباحثين دراسة هذا الشعر الجاهلي، الذي بين أيدينا اليوم، بعدّه الاصل القديم للشعر العربي، وأنه يمثل البداية الاولى لنشأته وطفولته، كانت نظرته قاصرة، لأن هذا الشعر يمثل مرحلة متطورة ومتنامية من حياة الشعر العربي كما ذكرنا.

ورب سائل يسأل فيقول: إذا كان هذا الشعر الذي بين أيدينا اليوم لفحول شعراء الجاهلية لا يمثل البدايات الأولى لنظم الشعر عند العرب، فأين تلك الأشعار التي تعود إلى مرحلة الطفولة والنشأة للشعر العربي.

نقول: إن الحديث عن مرحلة الطفولة والنشأة من عمر الشعر العربي هو حديث عن مرحلة غيبية غامضة إذ ليس لدينا تصور واضح عن تلك الحقبة، وكيف بدء العرب نظم أشعارهم، ولم نعثر على اسم شاعر نستطيع أن نطمئن ونقول بأن شعره يمثل اول شعر قيل عند العرب. فكل الآراء التي قيلت هي مجرد فرضيات تفتقر إلى الدليل العلمي القوي الذي يسندها ويدعمها.

فمن قال من الباحثين بأن ابن خذام الذي ذكره امرؤ القيس هو أول شاعر، وأن شعره هو أول شعر قيل وأنه يمثل مرحلة الطفولة والنشأة، نقول: إن هذا الكلام غير دقيق، فأمرؤ القيس ذكر بأنه مقلد لابن خذام هذا في بكائه للأطلال وبقايا الديار، فشعر ابن خذام لا يقدم لنا جديداً في هذا الموضوع لأن أشعاره تمثل أيضاً مرحلة متطورة من عمر الشعر العربي، فمن أخذ من الباحثين بهذا الرأي قاده رايه هذا إلى نتيجة خاطئة .

ومن الباحثين من أخذ بقول لابن سلام الجمحي وحديثه عن أوائل الشعراء وذكره لأسماء عدد منهم ك كالمستوغر بن ربيعة، و دويد بن نهد، و زهير بن جناب الكلبي وغيرهم على أن هؤلاء هم أوائل الشعراء الذين تنتمي أشعارهم إلى مرحلة الطفولة والنشأة من عمر الشعر العربي، غير أن جمع أشعار بعض من هؤلاء الشعراء في العصر الحديث أثبت أن شعر زهير بن جناب الكلبي، على سبيل المثال، لا تختلف عن أشعار امرئ القيس، والنابغة الذبياني، والأعشى وغيرهم من شعراء الجاهلية، الذين تنتمي أشعارهم إلى المرحلة الثانية من عمر الشعر العربي، وهي مرحلة النضج والاكتمال الفني في الصياغة والأسلوب، وهي المدة التي حدّدها الجاحظ بمائة وخمسين سنة قبل مجيء الاسلام، فهي لا تقدم لنا جديدا حول هذا الموضوع.

ومن الباحثين من قال أن الشعر العربي بدأ على شكل رجز، يقوله الرجل في حاجته ثم تطور هذا الرجز بمرور الوقت حتى أصبح قصيدا. وهذا الرأي ايضا تهاوى سريعاً أمام البحث العلمي، لأن الرجز هو وزن من أوزان الشعر العربي، عُرف في الوقت نفسه الذي عُرف فيه البحر الطويل، والكامل، والوافر وغيرها من بحور الشعر العربي.

وهكذا نجد تعدد النظريات والفرضيات التي قيلت حول أولية الشعر، وإلى جانب ما ذكرنا هناك فرضية تعد الأكثر قبولاً ورواجاً بين الباحثين، وهي تلك التي تعزو الأولية الشعرية إلى وظيفة دينية، إذ كان الشعر محض ترديدات وترانيم بدائية يقصد بها السحر، وتخاطب المجهول الذي شغل النفس الانسانية وامتلك مشاعرها فكان توجهه إليه غامضاً مشوباً بالرهبة، ثم تحول إلى شعور مليء بالتقديس، فتحول الشعر إلى أناشيد دينية في المعابد والهياكل، وبيوت الآلهة، وتمثيليات تنشد في المناسبات الاحتفالية والمواسم التي تتصل بعباداتهم وأعمالهم وأسواقهم.

فالشعر مرّ بهذه المراحل، ومن ذلك مرحلة الاضطراب التي تمثل الغيبوبة العقلية للشعر إذ كان الشعر ذا صلة بالتنبؤ بالغيب، فقد كانت مهمة الشعر كهنوتية ولغته غامضة كطلاسم الكهان وأحاجي السحرة قبل أن يصبح فناً ناضجاً مستكملا لمقومات الإبداع والجمال.

وفي الختام نقول: إن الحديث عن مرحلة الطفولة والنشأة من عمر الشعر العربي هو حديث عن مرحلة غيبية مازالت غامضة، لم نعثر على شعر، أو قول، في ما بين أيدينا من المصادر الأدبية، يوضح لنا حقيقة هذا الأمر ويجلو عنه عتمة ظلمته ، قد نهتدى إلى بارق ضوء حول هذا الموضوع في قابل الأيام وهذا يحتاج إلى رحلات استكشافية في أرض الجزيرة العربية لعلنا نجد ضالتنا فيها.